فلسفة التاريخ

مقدمة

الفلسفة هي محاولة إيجاد قانون واحد شامل ينتظم الكون بأسره وتخضع له جميع الحوادث فالعلوم تبحث عن الجزئيات والفيلسوف يستخرج من جزئيات العلم كليات الفلسفة

وقد حاول الكثيرون أن يبحثوا في التاريخ من ناحيته الفلسفية وكدوا أذهانهم في البحث عن سبب واحد يعللون به جميع حوادث التاريخ وتطوراته من يوم ولد الى يوم يموت فوصلوا الى نتائج مختلفة وأسباب متشعبة .

التفسير الاقتصادي للتاريخ

كان من بين النظريات التي اهتدى اليها البحث نظرية « التفسير الاقتصادي للتاريخ » ومن أكبر دعاتها الفيلسوف الاشتراكي كارل ماركس . وخلاصة هذه النظرية ان العوامل الاقتصادية والاغراض المادية كانت دائما الدافع الأول والمباشر لكل حوادث التاريخ فالانسان الأول لم يلجأ الى تكوين الجماعات الا ليسهل على نفسه سبل العيش، والجماعات لم تنقسم الى دول وشعوب إلا لاختلاف مصالحها الاقتصادية ونشوء الدول وتطورها وسقوطها يرجع الى أسباب اقتصادية بحتة والحروب والغزوات والهجرات لم تقم إلا على أسباب مادية خالصة .

ولاصحاب هذه النظرية شواهد تاريخية كثيرة تسند رأيهم وتعزز قولهم فالانقلاب الصناعي الذي حدث في أوروبا في القرن الثامن عشر كان له اكبر الاثر في تطور الشعور الديني عند مختلف الطبقات، وقد انتهى بضعف النزعة الدينية وتقوية شوكة الالحاد . والحرب الاوربية الكبرى سنة ١٩١٤ اقرب مثال لتأثير التطور الاقتصادي في تيار السياسة ومجراها . خرج الرجال الى ميادين القتال فبرز النساء الى ميادين العمل يملأن المصانع بأيديهن العاملة ويقمن بالحركة التجارية على اكمل وجه وقد قل بذلك اعتماد المرأة على الرجل، وتغير موقفها الاقتصادي نحوه فطالبت بحق التصويت . وسرعان ما احتلت مقعدا بين النواب بل وارتقت الى كرسي الوزارة . وقد كان لهذا الانقلاب الذي طرأ على مركز المرأة الاجتماعي اثر كبير في تغيير القوانين والآداب والفنون وجميع المرافق الاخرى التي قد تبدو عديمة الاتصال بالحالة الاقتصادية . وهكذا تم تحرير المرأة عند ما قل اعتمادها الاقتصادي على الرجل ولم تكن لتحصل على هذه الحرية بتأثير كتابات أفلاطون وجون استيوارت مل وغيرهما ممن ذاد عن حرية المرأة ودافع عن كرامتها . وكانت الطهارة والعفاف من فضائل المرأة الكبرى التي فرضها عليها الرجل حينما كانت تعتمد عليه اقتصاديا، وكان تفريطها في عرضها جريمة كبرى في نظر الرجل لا تقاس بها جرائمه التي يرتكبها في هذا الاتجاه مهما كانت جليلة خطيرة، فلما تحررت المرأة قلت مسئوليتها عن عفافها وكادت تساوي مسئولية الرجل .

والواقع أن كثيرا من آدابنا العامة وفلسفاتنا الخاصة تخضع لتأثير العوامل الاقتصادية كل الخضوع فالقناعة والرضا بالامر الواقع والتواضع والخنوع فضائل ارتآها الأغنياء للفقراء وفرضوها عليهم فرضا فاتخذها هؤلاء على مر السنين مبادىء ثابتة لهم تحت تأثير سلطة الاغنياء ويدافع ما يسميه ماكدوجل « الشعور بالذات السلبي » Negative self-feeling وهو شعور عكسي يدفع المرء لا الى التغلب على غيره بل ان الاستكانة والخضوع.

التفسير المادي للتاريخ

ومن الباحثين من كان تحت تأثير الفلسفة المادية فأرجع التاريخ الى أسباب مادية، وان تكن غير اقتصادية (والمادية في الفلسفة معناها ان جميع ظواهر العقل والفكر إما طبيعية أو ترجع الى أسباب طبيعية) ومن هؤلاء بكل Buckle الذي يقرر أن المناخ هو العامل الاكبر في تقلبات الحوادث فالحضارات القديمة انما نشأت في الجهات الحارة مثل مصر والهند وأشور وغيرها لسرعة نمو النباتات في تلك البلاد وسهولة العيش تبعا لذلك وكلما ارتقى الانسان في سلم التطور انتقلت مراكز حضارته الى البلاد الباردة . ويعزز ذلك سير المدنية شمالا من مصر الى بلاد اليونان والرومان الى أواسط أوربا الى انجلترا والسويد والنرويج حيث هي اليوم . ومن هؤلاء أيضا فرود Freud الذي يرى أن العلاقات الجنسية هي أساس كل ما يصدر عن الانسان من حركات واعمال .

فنحن اذن نستطيع أن ننظر الى التاريخ من عدة نواح مادية (أي طبيعية) ولكنها ليست اقتصادية ولا تتفق مع تفسير ماركس للتاريخ . ونظرية التفسير المادي للتاريخ تختلف إذن كل الاختلاف عن المادية في الفلسفة ولا بد من فصل الواحدة عن الاخرى .

العواطف وأثرها فى التاريخ

رغماعما للعوامل الاقتصادية والاسباب المادية التى ذكرناها من الاهمية العظمى فى تكييف السياسة وتحديد معتقدات شعب من الشعوب أو جيل من الاجيال فاننا لا يمكننا أن نتجاهل بعض العوامل الاخرى التى كان لها اكبر الاثر فى تاريخ الانسان وحياته العامة .

(أ) وأشد هذه العوامل وضوحا واكثرها اهمالا من جانب الاشتراكيين اتباع كارل ماركس عامل القومية ، فكثيراً ما تعارضت القومية مع المصلحة الاقتصادية وتغلبت عليها فتريستا مثلا كانت تعد نفسها قبل الحرب العظمى ايطالية مع ان مصلحتها الاقتصادية كميناء تتوقف على تبعيتها للنمسا، ولكن نظراً لان اكثر سكانها من الايطاليين فقد كانت تضحي بفائدتها المادية فى سبيل اشباع شعورها القومى . كما ان انفصال دول البلقان واستقلالها عن بعضها قد أدى الى ضعفها الاقتصادى ومع ذلك فقد تم هذا الانفصال تحت تأثير عوامل عاطفية قومية بحتة .

وقد كان العمال اثناء الحرب العظمى يسيرون مندفعين وراء شعورهم القومى متناسين رأيهم الاشتراكى الذى كانوا ينادون به « يجب أن يتحد العمال فى جميع أنحاء العالم » تجاهل العمال هذا المبدأ حيناً، ووقفوا فى ميدان القتال وجهاً لوجه للمحافظة على حدود الوطن وتلبية لداعى القومية . وقد يعترض أصحاب فكرة التفسير الاقتصادى على ذلك فيقولون، ان العمال كانوا يستمعون فى هذا القتال لنداء أصحاب رءوس الأموال الذين رأوا فى الحرب فرصة للصيد فى الماء العكر ، وتكديس الارباح والمكاسب ولكننا لانقيم لهذا الاعتراض وزنا اذا عرفنا أن كثيراً من الرأسماليين هووا الى الافلاس أثناء الحرب .

(ب) ومن العوامل ذات الأثر البين فى التاريخ المنافسة وحب السيطرة . فالمنافسة التجارية بين انجلترا والمانيا كانت سبباً هاماً فى نشوب الحرب الكبرى، والمنافسة كما نعلم غريزة من غرائز الانسان المتعددة تظهر بأشكال مختلفة وقد كان هذا الوجه الاقتصادى الذى ظهرت به قبيل الحرب أحد هذه الاشكال فلا يمكننا اذن أن نعد هذا السبب من أسباب الحرب من بين العوامل الاقتصادية فقد كان بوسع أصحاب الاموال من انجليز والمان أن يتحدوا ويتعاونوا فيجنوا من وراء ذلك الارباح الطائلة، ولكن غريزة المنافسة غلبت عليهم فتجاهلوا مصلحتهم الاقتصادية واندفعوا وراء غرائزهم الوحشية .

هذا وقد دفعت غريزة السيطرة وحب القوة الاسكندر وقيصر ونابليون وغيرهم الى تملك ناصية العالم، ولم يكن هؤلاء الرجال يرمون الى زيادة ثروتهم وممتلكاتهم، وإنما كانوا يشبعون غرائزهم ويبذلون أرواحهم فى سبيل منافسة خصومهم والتغلب عليهم ، حتى أن الدنيا لو خلت من خصم لهم لتلمسوا المعاذير وخلقوا أسباب الخصومة خلقاً، جريا وراء النصر وحب التغلب!

وكيف يمكننا أن نتجاهل العاطفة الدينية وما كان لها من أثر فى حروب دموية طويلة عند ظهور الاسلام وبين المسلمين والصليبيين . وكثيراً ما اتحدت الجماعات المختلفة بتأثير العامل الدينى رغم ما كان بينها من فوارق اقتصادية وإنا لنجد العامل الكاثوليكى فى أوروبا يصوت لرأسمالى كاثوليكى ولا يصوت لاشتراكى ملحد، رغم اتفاقه وإياه فى آرائه الاقتصادية فطبقة العمال تنظر الى رفع عماد الدين قبل أن تنظر الى تحسين حالتها المعيشية .

الفلسفة وأثرها فى التاريخ

وكثيراً ما كانت لآراء الفلاسفة نتائج عملية فى توجيه السياسة وليس أدل على ذلك مما كان لتعاليم روسو من أثر قوى فى مجرى السياسة العالمية، مما أدى إلى قيام الثورة الفرنسية وما استتبعها من تطورات كما أدى إلى مناداة الولايات المتحدة بحريتها ومطالبتها باستقلالها .

علم النفس وضرورته لتفسير التاريخ

واخيراً فان التاريخ يحتاج كما تحتاج جميع مظاهر الحياة الى معونة علم النفس لتفسيره وتحليل أسبابه وقد أظهرت المباحث الحديثة فى هذا العلم أن الأعمال التى ترتكز على أساس من العقل والفكر ليست الا قطرة حقيرة فى خضم الاعمال التى تنبعث عن اللاشعور متأثرة بأسباب غير معقولة وكثيرا ما تغير وجه التاريخ لأسباب مجهولة نبعت عن دوافع لاشعورية عند بعض الزعماء وعظماء الرجال، ولكن ماركس كان متأثرا بآراء علماء النفس فى القرن الثامن عشر حينما كان يبحث عن أسباب معقولة يفسر بها حوادث التاريخ فهداه البحث الى العامل الاقتصادى وعليه بنى نظريته فى الاشتراكية زعامنه أن المساواة الاقتصادية تدعو الى ايقاف التطاحن والحرب بين البشر .

محمود محمود محمد
ليسانسيه فى التربية والتاريخ